المحاضرة الثامنة: المستوى التداولي

النتاجات العلمية:

١. **تعريف مصطلح التداولية وأهميته**

٢. **توضيح نشأة وتطور المصطلح**

٣. **تمييز معطيات العملية التداولية**

٤. **تستنتج العلاقة بين التداولية ونظرية الأفعال الكلامية**

٥. **تحلل بنية الفعل الكلامي وتأثيره في التلفظ**

٦. **تصنيف الأفعال الكلامية**

٧. **تحليل نص تراثي تحليلا تداوليا**

التداولية (اصطلاحاً): ينسب أول استعمال لمصطلح (pragmatique) للفيلسوف الأمريكي (شـــارل موريس) وذلك ســـنة ١٩٣٨ وقد عرفها بقوله: ((التداولية جزء من السيميائية، التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات)). وهذا المصطلح في رأيه يمثل أحد هذه الفروع التي يمكن معالجة اللغة بها:

١- **علم التراكيب**: ويعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢- **علم الدلالة**: وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها.

٣- **التداولية**: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها. إلا أنّها لم تصبح منهجاً يعتد به في الدرس اللغوي المعاصـــر إلا في العقد الســـابع من القرن العشـــرين بعد أن عمل على تطويرها ثلاثة من فلاســـفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلســـفي لجامعة أكســـفورد هم أوســـتن وســـيرل وجرايس، وأصـــبحت منهجاً لســـانياً يدرس علاقة النشـــاط اللغوي بمستعمليه، فلا يمكن دراسة اللغة إلا عند استعمالها، فهي ((دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شـاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية)) ، ويقصـد بالاسـتعمال أنّ الخطاب يكون وليداً لظروف معينة تســـاعد على إنتاجه مقامات مختلفة يوظفها المتكلم في

خطابه على وفق قصـــديته لإيصـــال المعنى المراد إلى المتلقي. فالكلام يقصـــد به أنّ المتكلم يهدف إلى تحقيق الإنجاز من خطابه وإيصـال المتلقي إلى مستوى من التأثير. بمعنى أنّ هذا المنهج يُعنى بـأثر التفـاعـل الخطـابي في موقف الخطـاب ويتبع هـذا التفاعل دراسـة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، وبخاصـة المضـامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق. وتشمل هذه المعطيات:

١. معتقدات المتكلم ومقاصـــده، وشـــخصـــيته وتكوينه الثقافي ومن يشـــارك في البحث اللغوي.
٢. الوقـائع الخـارجيـة، ومن بينهـا الظروف المكـانيـة والزمـانيـة، والظواهر الاجتمـاعيـة المرتبطة باللغة.
٣. المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النص الكلامي فيهما.

وقد لخصت (فرونسواز ارمنيكو) هذه المعطيات إلى تساؤلات:

أ. من يتكلم؟ (**المتكلم/المبدع**).

ب. مع من تتكلم؟ (**المستمع/المتلقي**).

ج. لأجل ماذا نتكلم؟ (**مقاصد الكلام**)

د. ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟

ذ. كيف نتكلم بشيء، ونريد قول شيء آخر؟ (السياق).

س/ كيف تبلور مصطلح التداولية؟

فالتداولية هي المنهج الذي بوســـاطته تتم الإجابة عن هذه التســـاؤلات. وقد تعددت مصـــطلحات هذا المنهج وتنوعت بحســـب فعل الترجمة، لكن أول من وضـــع مصـــطلح (التداولية) مقابلاً لمصـــطلح البراجامتية هو (د.طه عبد الرحمن)، إذ يقول: ((وقد وقع اختيارنا منذ ١٩٧٠ على مصطلح "التداوليات" مقابلاً للمصطلح الغربي (براغماتيقا)؛ لأنّه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيي "الاســـتعمال" و "التفاعل" معاً. ولقي منذ ذلك الحين قبولاً من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم).

س/ ماهي المعطيات التي يغطيها مصطلح التداولية؟

فالتداولية منهج يعنى بـــ (دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شـــيئاً متأصـــلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا الســـامع وحده، فصـــناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والســـامع في ســـياق محدد.... وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما).

س/ لماذا تصنف الدراسات اللغوية المنهج التداولي تصنيفا اجرائيا؟

فالمنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي، ويبحث عن علاقة العلامات اللغوية بمؤوليها، مما يبرز أهمية دراســـة اللغة عند استعمالها، ومن ثم فإنه يعنى بدراسة مقاصد المتكلم؛ وكيف يستطيع المرسل أن يبلغها في مســـتوى يتجاوز مســـتوى دلالة المقولة الحرفية، كما يعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل انجازه ملائما لذلك السياق. وذلك بربط انجازه اللغوي بعناصـر السـياق الذي حدث فيه، فمنها ما هو ذاتي مثل مقاصـد المتكلم ومعتقداته، وكذلك اهتماماته ورغباته، ومنها أيضـــا المكونات الموضـــوعية؛ أي الوقائع الخارجية، مثل زمن القول ومكانه، وكذلك العلاقة بين طرفي الخطاب. وتساهم هذه العناصـر في تحديد الدلالة عند المتلقي، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب في سـياق معين، كما يعين على معرفة أثر السياق في لغة الخطاب عند إنتاجه.

الجانب التطبيقي: نظرية الفعل الكلامي:

تعد نظرية الفعل الكلامي من أهم أســـس المنهج التداولي بل هي العماد الذي قامت عليه التداولية، حتى أنّ هناك نفرًا من الباحثين من كان يطلق على التداولية اسم (الفعليات) نسبة إلى هذه النظرية التي تشـكل أهم جزء فيها وبذلك تمثل (الأفعال الكلامية) النواة الأسـاسـية للتداولية، ويقصد بها ((التصرف أو "العمل" الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام، ومن ثم فـــــ"الفعل الكلامي" يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة، ومن أمثلته: الأمر، والنهي، والوعد، والســـؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة... فهذه كلها "أفعال كلامية")). ويعني هذا أنّ المتكلم عندما يتلفظ بقول ما فإنّه يحقق إنجازاً فعلياً يكون متحققاً على أرض الواقع لغرض التواصل مع المتلقي أولاً، ومن ثم يحقق إنجازاً وتأثيراً وانطباعاً في نفســـه ثانياً، وبذلك فإنّ اللغة ليســـت مجرد أداة

للتواصل أو وسيلة للتخاطب كما تتصورها المدارس الوظيفية، أو رموزاً للتعبير عن الفكر كما تتصـــورها التوليدية التحويلية، وإنّما هي أداة لتغيير العالم وصـــنع أحداثه والتأثير فيه وتغيير السـلوك الإنسـاني عبر مواقف كلية ، وإنّ المؤسـس الأول لنظرية الأفعال الكلامية هو (أوستن - ت ١٩٦١م) الفيلسوف اللغوي الإنكليزي الذي ألقى سلسلة من المحاضـرات الشـهيرة في جامعة (هارفرد) الأمريكية في عام (١٩٥٥) التي اشـتهرت باسـم (محاضـرات وليم جيمس) ثم نشرت عام (١٩٦٢) بعد وفاة (أوستن) من أحد طلابه (إيرمسن) على هيأة كتاب بعنوان (كيف تفعل الأشـــياء بالكلمات-How to do things with word)، أو كيف ننجز الأشياء بالكلام ، وبنظريته هذه كان لا ينظر إلى اللغة من الجانب اللغوي والنحوي والنفسي فحســب، بل من الجانب الاجتماعي أيضـــاً، باســتعمالها عن طريق التأثير والتأثر لتحقيق التواصـــل. فالفعل الكلامي هو كل ملفوظ ينطق به المتكلم ليحقق حدثاً إنجازياً وتأثيراً في نفس المتلقي، وهذا الملفوظ (ينهض على نظام شـكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضـــلاً عن ذلك، يعد نشـاطاً مادياً نحوياً يتوسـل أفعالاً قولية لتحقيق أغراض إنجازيه "كالطلب والأمر والوعد والوعيد.. إلخ" لغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي "كالرفض والقبول". ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أو مؤســســاتياً، ومن ثمّ إنجاز شــي ما). وقد وصــلت نظرية الفعل الكلامي إلى مرحلة النضج والاستقرار على يد (جون سيرل) معتمداً على الأسس التي وضعها أستاذه (أوستن)، إذ قام بتطوير النظرية وإعادة صياغة أفكارها من جديد

بنية الفعل الكلامي:

رأى (أوســـتن) أنّ الفعل الكلامي يتكوّن من ثلاثة أفعال تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد هي:

١- الفعل اللفظي (فعل الكلام) أو (فعل القول): ويقصـد به النطق ببعض الألفاظ أو الكلمات إي إحداث أصوات على أنحاء مخصوصة متصلة على نحو ما بمعجم معين، ومرتبطة به، ومتمشية معه، وخاضعة لنظامه. مثل بَر/ بُر/ بِرّ

٢- الفعل الإنجازي (قوة فعل الكلام) أو (الفعل المتضـمن في القول): ويقصـد به إنجاز فعل في حال قول شيء ما مع مراعاة مقتضى المقام.

٣- الفعل التأثيري (لازم فعل الكلام) أو (الفعل الناتج عن القول): والمقصود به الأثر الذي يتركه المتكلم في نفس المتلقي؛ لأنّ قول شيء ما قد يترتب عليه أحياناً أو في العادة حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره وتصرفاته من قبول أو غضب أو حزن أو فرح...ألخ مثل: التدخين، الرجاء التزام الهدوء، السير على خطوط العبور.

تصنيف الأفعال الكلامية:

١. **الإخباريات**: هو الفعل اللغوي الذي يلزم المتكلم بحقيقة الغرض القضوي المتحدث عنه، أي أنه يعكس واقع الأشياء في العالم، وهو على قسمين، (فعل خبري تقريري، وفعل خبري أدائي) ومهمة هذا الفعل يخلص الهدف من استعماله إلى توصيل معلومة أو تبليغ فكرة، أو معنى بعينه، أو وصف شيء أو تصويره، أو سرد معلومات أو تقديم تقرير وهو يحتمل الصدق أو الكذب أي مطابقة، مثاله الفارق بين (أنا أعتذر، وأنا اعدو)، فالمنطوق الأول يصدق أداؤه وإنجازه لفئة معينة أساء لهم المعتذر فصح أداؤها، أما غير المعنيين فلم تنجز لديهم شيئا، أما الجملة الثانية فالعدو فعل أنجز وواضح صدقه ويمكن تمييزه وينبغي توافر شروط الوضوح، والمشاركة، ومناسبة المقام، إيقاع الفعل، التوجّه.

٢. **التوجيهيات**: وتعني الفعل اللغوي الذي يدفع السامع إلى القيام بفعل معين مثل: أفعال الطلب والسؤال والأوامر ووجهة المطابقة في هذه القضايا هي من العالم إلى الكلمة، وذلك لأن المتكلم يطلب من مستمعه أن ينجز محتوى كلامه ضمن السياق الفعلي، وتتجسد الحالة النفسية للمتكلم في رغبته المبنية على وجوب إنجاز المستمع للفعل المطلوب، ولهذه الأفعال درجات ومراتب وآليات تمكن المتكلم من إقناع المستمع بالفعل الإنجازي، ولا تحتمل هذه القضايا الصدق والكذب بل تدخل في مجال الالتزام والوفاء بالعمل أو النكوص عنه.

٣. **الالتزاميات**: تعني الفعل اللغوي الذي يلزم المتكلم بالنهوض بسلسلة من الأفعال المستقبلية (بدرجات متباينة)، ومن أمثلتها: أفعال العرض والوعد والوعيد والقسم والنذر، وجهة المطابقة لهذه الطبقة هي مطابقة العالم للكلمة، والحالة النفسية التي يبرزها المتكلم عند تبيينه لهذا النوع من القضايا هي القصد.

٤. **التعبيريات:** هي الأفعال اللغوية التي تعبر عن حالة نفسية للمتكلم، ومن أمثلتها: الشكر والاعتذار والترحيب والتهنئة والتعزية وأمثال هذه الأفعال، ويشـــار إلى أنه لا توجد جهة مطابقة في هذه الطبقة، فعندما يقول المتكلم (أشكرك على تسديدك ديني) فهو لا يريد مطابقة العالم مع الكلمات، أو الكلمات مع العالم، سوى أنّه يسلّم بصدق القضية المعبّر عنها، وهو تسديد المبلغ، فهو يحاول فقط التعبير عن حالة نفسية خاصة حيال محتوى القضية المحددة والمسلّم بها.

٥. **الإعلانيات**: هي الأفعال التي تحدث تغيرات فورية في نمط الأحداث العرفية، التي غالباً ما تعتمد على طقوس اجتماعية تتسم بالإطالة، ومن أمثلتها: أفعال اعلان الحرب وطقوس الدينية والزواج وأفعال الطرد والإقالة من العمل، فمثلاً: عندما يعلن زعيم (أعلنت الحرب) فهو يريد بهذا العمل إعلان القتال، وإعلانه هذا يغيّر الواقع ويفرض وضعاً جديداً، في حالة الإعلان هناك جهتان للمطابقة؛ فهو يقوم بتغيير العالم والواقع، فيكون أولاً مطابقة العالم للكلمة؛ وثانياً إننا ننجز هذا الفعل عندما نقول أعلنت الحرب، فتكون هذه الحالة هي مطابقة الكلمة للعالم.

س/ لماذا انماز الفعل الإعلاني بالفردة من بين الأفعال الكلامية الأخرى؟

إنّ أفعال الإعلان تمتاز بالفرادة بين أفعال الكلام الأخرى لجهة أنّ الأداء الناجح لفعل الإعلان الكلامي هو بحدّ ذاته يعني التغيير وخلق حالة الأمر، فعلى سبيل المثال: إذا قال المتكلم، وطبقاً لقواعد وشـروط إنجاز الصـفقة :بعتُ كتابي فقد ظهرت حالة أمر لم تكن موجودة، بيد أنّ هذه الطبقة من أفعال الكلام ـــ وكما نبّه سيرل ـــ تتطلب سياقات غير لسانية إلى جانب السياق اللساني الذي يعتبر شرطاً ضرورياً لفعل الكلام الإعلان، ويصطلح سيرل على هذا السياق غير اللساني السياق العرفي المؤسساتي حتى يمكن لعبارة (بعت كتابي) أن تكتسـب الواقعية والاعتبار، وكذا الأوراق الملونة الصغيرة في جيبي لتكون عملة ورقية، إذاً مع عدم اعتبار العقلاء في هذه الحالات لن يكتسب الفعل تحققاً وفعلية.

الإجراء: النص التراثي

يذكر صـــاحب كنز العمال في ســـنن الأقوال والأعمال محاورة تراثية في حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ســـلام الله عليه وقد كثر المتنازعين في الســـلطة والحكم أو التشـريع إذ جاء فيها:**(دخل رجل المسـجد، فقال: لا حكم إلا لله! ثم قال آخر لا حكم إلا لله!، فقال علي عليه الســـلام لا حكم إلا لله (فاصـــبر إنَّ وعدَ الله حقٌّ ولا يســـتخفنك الذين لا يوقنون) (مريم: ٦٠)، فما تدرون ما يقول هؤلاء).**

تحليل المستوى التداولي:

السـياق اللغوي لهذه الآية الكريمة في حاضـنتها القرآنية تدل على تصـبير الرسـول الكريم صلى الله عليه وآله على تكذيبه وإعراض الناس عنه (فاصبر على عداوتهم إن وعد الله حق ينصرك ويظهر الدين على الدين كله وهو حق لا بد من إنجازه والوفاء به ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون فإنهم شاكّون ضالّون لا يستبعد عنهم ذلك التصرف).

طرفي الحوار(النص القرآني) =رب العزة جل علاه ← الرســول الكريم صــلى الله عليه واله(لذا كان الحوار بنبرة حميمية حانية مواسية للرسول الكريم.

طرفي الحوار في المحاورة(الحاكم الشـرعي المتمثل بأمير المؤمنين علي عليه السـلام ← رجل مرق عن طاعة حاكمه وعارضــه، لذا احتج أمير المؤمنين بهذه الآية لتوضـيح المقام بحجة إخبارية متعارف عليها في المؤسسـة الثقافية للجماعة اللغوية المشتركة، فبيئة الحوار بيئة إســـلامية والدســـتور الشـــرعي الذي احتكم له المتحاورون هو القرآن الكريم، فنجد المحاورة جاءت بنبرة اختلفت عن حاضـــنتها الأم بنبرة تقتضـــي التأنيب والردع لنكث المخاطب ببيعته الشـرعية لأميره الشـرعي، فالفعل اللغوي في المحاورة هو فعل توضـيحي إخباري كانت مهمتها تأدية المتوالية اللفظية بنحو يحقق فعل إنجازي إخباري.